الفردوس الارضي

تحليل لجمهورية افلاطون[1]

اندريه موروا: عن افلاطون تصدر كل المسائل التي مازال المفكرون والكتّاب الى يومنا هذا يكتبونها ويناقشون فيها . . . ان كتبهُ هي توراة المتعلمين منذ اثنين وعشرين قرناً . . . . فسانت اغسطين وكوبرنيكس ونيوتن وبهمن وسويدنبرغ وغوته هم كذلك مدينون لهُ . هو الرائد وهم التابعون . لانهُ من الانصاف ان تنسب الى هذا « المعلّم » العظيم كل التفاصيل التي تستخرج من فلسفتهِ . . . افلاطون هو الفلسفة . والفلسفة هي افلاطون . . انهُ لمن مجد البشر ومن هوتهم ان لا يستطيع سكسوني ولا روماني زيادة فكر واحد على مقرّراتهِ . لم يكن لهُ زوجة ولا اولاد ولكن المفكرين في كل العالم المتمدن هم وارثوهُ المتسمون بسيماء عقلهِ . . . . لقد طبعت كتابات افلاطون كلّ مدرسة من مدارس التعليم وكل محبّ من محبي الفكر ، وكل كنيسة وكلّ شاعر . . . وأكثر ما يثير اعجابي «العصرية» الواضحة في روحهِ وأسلوبهِ . ان فيهِ جرثومة اوربا التي نعرفها ، بتاريخها — تاريخ اصلحها وفنونها — انك تستطيع ان تتبيّن كلّ لغاتها وعبقريتها في عقل افلاطون — ولا تستطيع ان تتبينها في احد قبلهُ . لقد تفرّعت هذه العناصر ونزلت في مئات من مجلدات التاريخ لكنّ عنصراً واحداً جديداً لم يضفْ اليها . ان هذه العصرية المتجدّدة هي مقياس العظمة في كل فن لانها تدل على ان صاحبها لم يغترّ بشيء محلّي زائل بل عُني بالصفات الحقيقية الخالدة . . . ما اكثر العصور التي كرّت وهو لا يزال جالساً على عرشهِ لا يقاربهُ احد !

عن امرسن
في خطبته التي موضوعها « افلاطون الفيلسوف »

(١) هذا نص المقدمة التي وضعها رئيس تحرير هذه المجلة لنرجمة « جمهورية افلاطون » العربية التي طبعناها واهديناها الى متذوقي المقتطف . وقد نشرناها هنا فائدة لقراء المقتطف غير المشتركين

الجمهورية : من يداخله اقل ريبة في اثر افلاطون ؟ انظر الى الاكاديمية التي انشأها. اول الجامعات في التاريخ وأطولها عمراً . انظر الى الاهتمام العام والتجديد المتكرر الذي كان من نصيب فلسفته . انظر الى المقام الذي احرزه في ثقافة القرون الوسطى وما لفكره من الاثر في المباحث اللاهوتية الحديثة . واذكر ان مائة الف تلميذ او اكثر في كل انحاء العالم المتمدن مكبّون الى اليوم على «جمهوريته» و«محاوراته». انها لمن اعمّ الآثار التي يقتنيها البشر . ففيها اتخذت الفلسفة اولاً شكلاً معيّناً . ولما افاض عليها افلاطون من عواطف شبابه الزاخرة المتنوّعة بلغ بها قمة الابداع العليا . والجمهورية ! فيها تجد مباحث ما وراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن . فيها تجد المبادىء التي تنشدها طالبات التحرر من النساء . وفيها تقع على القواعد التي يدعو اليها علماء الحياة لتحديد النسل . فيها تطالع مبادىء الاشتراكية (بل والشيوعية) واليوجنية والارستقراطية والدمقراطية والتحليل النفسي والمذهب القائل بأن الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . فلا عجب ان يقول امرسن في هذا الكتاب « احرقوا كل الكتب ففي هذا الكتاب غنى عنها »

ول دورانت في المجلة الاميركية
مؤلف « قصة الفلسفة » و « تصور الفلسفة »

سقراط

لا يذكَر افلاطون الاّ ويذكَر سقراط . فأفلاطون تلميذ سقراط وعلى لسانه اجرى المحاورات التي ترفعه الى اعلى طبقة بين الفلاسفة والشعراء . ولا بدّ من فهم سقراط لفهم افلاطون بوجهٍ عام ولفهم الجمهورية بوجهٍ خاص . لذلك نبدأ تحليل الجمهورية بمحاولة تحليل الرجل الذي جرت على لسانه

اذا صحّ لنا ان نحكم على سقراط من تمثاله النصفي الذي عثر عليه في ركام بيت قديم قلنا ان وجهه لم تبدُ عليه ملامح الجمال الذي يتصف به الفلاسفة في اكثر الاحيان . رأس اصلع ووجهٌ كبير مستدير وعيون عميقة المستقر محلقة البصر وأنف كبير عريض — يؤيد ما قيل — من ان هذا التمثال يمثل رأس حمّال لا رأس اشهر الفلاسفة

ولكن اذا اعدنا النظر الى هذا التمثال الصامت شهدنا في ملامح صاحبه من آثار السذاجة واللطف والعطف ، صفات جعلت هذا المفكر الهادىء معلماً لنخبة شبان اثينا . اننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً ولكننا نعرف عنه اكثر مما نعرفه عن تلميذه افلاطون

وتلميذ تلميذه ارسطوطاليس . انا نستطيع ان ننظر اليه الآن — فوق جسر من الزمن يعبر ثلاثة وعشرين قرناً — فنراه بجسمه الخالي من الرشاقة والجمال منشحاً رثّ الثياب ، يمشي في تؤدة ووقار لا تثيره عواصف السياسة ولا تقلقه ثم لا يلبث ان يجتمع حوله نفر من الشباب والمتعلمين فيسير بهم الى زاوية ظليلة من زوايا رواق في احد الهياكل ، وهناك يقف في وجههم ويقول لهم في بساطة ودعة وحزم: « حددوا الالفاظ التي تستعملونها »

كان في هذا الجمهور من التلاميذ — شبان اغنياء كافلاطون والسيياديز الذين كانوا يسرهم تحليلهُ الهادم للدمقراطية الاثينية . وكان بينهم اشتراكيون كأنتيثينيس الذين كانوا يحبون بفقر الوديع حتى يدينوا به . وكان بينهم فوضويّ او فوضويان مثل ارستيبس الذي كان يرنو الى عالم لا اسياد فيه ولا عبيد . كل المسائل التي تثير المجتمع الانساني اليوم كانت تثير تلك الطائفة الصغيرة من المفكرين ، الذين كانوا يرون مع معلمهم ان الحياة من غير بحث ليست حياة خليقة بالانسان . كل مدرسة من مدارس الفكر كان لها ممثل هناك بل عند التدقيق ترى انها هناك نشأت

كيف كان يعيش ؟ لا نعلم . انهُ لم يشتغل مطلقاً ولا كان يهتم بالغد . كان يأكل حين يدعوه تلاميذه ليشرّف موائدهم . ولكنهُ لم ينل ترحيباً مثل ترحيبهم به حين كان يؤوب الى بيته ، لانهُ كان يهمل زوجتهُ زانتيب فكانت تقول فيه انهُ رجل لا يفيد شيئاً . وانهُ جلب لا سرته شهرة اكثر مما جلب لها خيراً . ولكنها كانت تحبهُ ولم تطق ان تراه يرتشف كأس الردى مع انهُ كان قد اوفى على السبعين

ولماذا اجلّهُ تلاميذه واكرموهُ ؟ لعلّ السرّ في ذلك انهُ كان رجلاً (بكل معاني الرجولة) وفيلسوفاً في آنٍ واحد . فمن المأثور عنهُ انهُ غامر بحياته ليخلص السيياديز في احدى المعارك . وكان يستطيع ان يشرب (خمراً) شرب رجلٍ سريّ لا يتعدى فيه حدود الاعتدال . ولكن مما لا ريب فيه ان احبّ صفاته اليهم كانت صفة الوداعة في حكمته . فانهُ لم يدّعِ يوماً انهُ قبض على زمام الحكمة ولكنهُ كان يفاخر بانهُ يسعى الى الحصول عليها سعيَ من يحبّها . فقد كان من هواة الحكمة لا من محترفيها — اذا صحّ اطلاق هذا التعبير المستحدث . ويقال ان الآلهة في دلفي قالت فيه « انهُ احكم اليونان قاطبة » فحمل ذلك على تحمل موافقتها لهُ في تجاهله (لاادريته) والتجاهل في رأيه لا بدَّ ان يكون مرتبة الفلسفة الاولى . فقد كان يقول — اني اعلم شيئاً واحداً وهو اني لا اعلم شيئاً . والفلسفة تنشأ حين يداخل الانسان الريب — الريب خصوصاً في المعتقدات والاحكام والاوليات التي ورثها . كيف صارت هذه المعتقدات بمثابة حقائق ؟ الم تنشأ في اول نشأتها عن رغبة خاصة فاسيغت

سقراط الذي جرت على لسانه جمهورية افلاطون

مقتطف اكتوبر ١٩٢٩

أمام الصفحة ٢٤٨

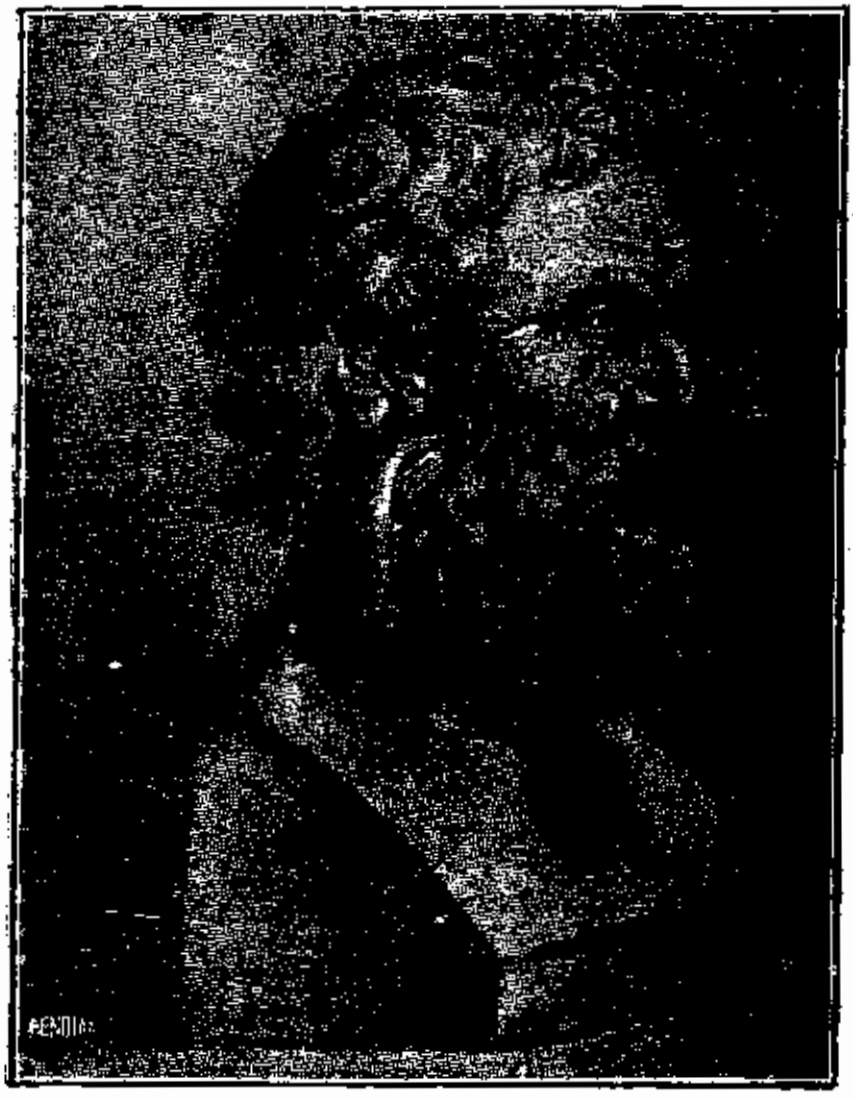

أفلاطون

نقلاً عن كتاب « قصة الفلسفة » تأليف الدكتور ول ديورانت

عليها الرغبة فيها ثوباً من الفكر صارت معتقداً محترماً لا يقبل النقض ! ان الباحث لا يصل الى صميم الفلسفة الا حين يثّبجهُ عقلهُ الى درس نفسه — او حين يقول مع سقراط — اعرف نفسك

أثره الفلسفي

كان قد سبقهُ جمهور من الفلاسفة امثال طاليس وهيراقليطس — بارمنيدس وزينو الايليائي — فيثاغوراس وامبدوقليس. ولكنهم كانوا في الغالب فلاسفة الطبيعة وظواهرها. كانت مباحثهم في جملتها تدور على طبيعة الاشياء — النواميس والمقاييس التي تجري بموجبها الاشياء، والعناصر التي تتألف منها. وهذا عمل جليل — في رأي سقراط. ولكن هناك موضوعاً اجلُّ خطراً في نظر الفلاسفة، يسمو على كل هذه الاشجار والحجارة — حتى وعلى هذه الكواكب — هناك عقل الانسان. ما الانسان وما مصيرهُ ؟

وهكذا مضى سقراط يبحث في نفس الانسان هاتكاً الستر عن المسلمات متسائلاً عن معناها وكان اذا اجتمع جمع من تلاميذه وداز حديثهم على العدالة تراهُ يسألهم في هدوء — ما هي العدالة ؟ ماذا تعنون بهذه الالفاظ المجردة التي تحكمون بها حكماً فاصلاً في مسائل الحياة والموت؟ ماذا تعنون بالفاظ «الشرف» و«الفضيلة» و«الادب» و«الوطنية». ماذا تعنون حين يقول واحدكم «انا» ؟ وعلى هذا النمط ترى ان سقراط كان يعالج هذه المسائل الادبية السيكولوجية. وبعض الذين كانوا يفضّلون بطريقته السقراطية التي توجب التحديد الدقيق، والتفكير الصافي، والتحليل الجليّ، كانوا يعترضون عليهِ ويقولون انهُ يسأل اكثر مما يجيب وانهُ بعد توجيه اسئلته كان يترك عقول سامعيه اكثر اختلاطاً وتشويشاً مما كانت عليهِ قبله. ومع ذلك تجد أنهُ خلف في تاريخ الفلسفة حدين محدودين الاول حدّ « الفضيلة ». والثاني حد « الدولة المثلى »

كانت هذه المسائل اهم ما تحوم حولهُ افكار الشبيبة الاثينية في ذلك العصر. وكان فلاسفة السفسطائيين قد نزعوا من صدور الشبيبة ايمانهم بآلهة اولمبوس وإلاهاته، وبالنظام الادبي الذي نال حرمتهُ من الخوف الذي كان يخالج الناس من الآلهة الكائنة في كل مكان. وعلى ذلك أطلق هؤلاء الشبان العنان ليفعلوا ما يشاؤون، ما داموا لا يخرجون عن حدود القانون. هذا من جهة. ومن جهة اخرى كانت عوامل الضعف قد اخذت تنخر في الخلق الاثيني، مما جعل المدينة العظيمة مرتعاً لابناء سباطة الاشداء. اما الدولة — او الحكومة فكانت قد انحطت حتى اصبحت دمقراطية يسيّرها الرعاع تسيّرهم الشهوات. وتدوتها كانت قد صارت دار جدال لا غير. فصار القواد ينتخبون او يطردون او يقتلون

لاقل ربح من الشهوة تصف بعقول الجمهور. وصار الفلاحون السذج ينتخبون ليكونوا اعضاء في المجلس الاعلى لان دورهم جاء حسب ترتيب اسمائهم الهجائي !

فلسفتان انكريان كانتا — كيف يستطاع وضع نظام ادبي جديد ، وكيف يستطاع خلاص الدولة ؟

سبب موته وخلوده

ان اجوبة سقراط عن هاتين المسألتين منحتهُ موتهُ وخلودهُ في آن واحد . فانهُ لو حاول ان يعيد النظام الديني القديم القائم على تعدد الآلهة ، ولو انهُ سار باتباعهِ الى الهياكل وامرهم ان يذبحوا الذبائح لآلهة آبائهم لوجد شيوخ الامة ملتفين حوله ، ينصرونهُ ويؤيدونهُ ويجعلونهُ في المقام الاعلى . ولكنهُ ادرك ان ذلك خطة خير منها الانتحار ، لانها خطة ترجع بمجيها الفهقرى الى القبور

وقد كان راسخ الايمان بمعتقده الديني — القائم على الايمان باله واحد — وكان يأمل ان لا يفنى في التراب متى شرب كاس الردى (اي كان يؤمن بالخلود) . ولكنهُ كان يعلم حق العلم انهُ لا يستطيع ان يبني نظاماً اديبًا على اساس معتقدٍ واهٍ كهذا الاساس . فقال لنفسه اذا كنا نستطيع ان نبني نظاماً اديبًا غير مرتبطٍ بالمعتقدات الدينية ، يخضع لهُ الملحد والمؤمن على السواء من غير ان يمس عقيدتهما فعندئذ نكون قد فعلنا شيئاً لا يزول . تأتي المعتقدات الدينية وتذهب ، وهذا النظام باقٍ على الدهر يجعل ابناء كل دولة اعضاء حية في جسمها الحي

فاذا عني « بالصلاح » و « المعرفة » و « بالفضيلة » و « الحكمة » ، واذا استطعنا ان نعلم الناس حتى يدركوا ما هي مصالحهم الحقيقية وان يكونوا بعيدي النظر يرون النتائج التي تنجم عن اعمالهم قبل وقوعها ، اذا هذبناهم حتى يضبطوا شهواتهم ويؤلفوا بينها — اذا استطعنا ذلك خلقنا من الفوضى نظاماً ومن الضوضاء ايقاعاً

هذا هو الاساس الذي يجب ان يقوم عليهِ النظام الادبي

للرجل الجاهل شهوات ورغبات تثيرهُ كالشهوات التي تثير الرجل الكامل التهذيب . ولكن المهذب يعرف كيف يضبطها ويمنع جهد الطاقة عن مجاراة الوحوش في ثورانها . وفي دولة بني نظام ادارتها على اركان من المعرفة والحكمة — في دولة تميد الى الفرد من القوى الواسعة اكثر مما تسلبهُ من الحرية بتقييدها — تقضي مصلحة كل رجل ان يتصرف تصرفاً اجتماعيًا رائدهُ الحكمة والاخلاص . ولا يبقى الا ان يكون الحكام بعيدي النظر حتى يستتب للدولة سلام ونظام ووئام

ولكن اذا كانت الحكومة فوضى، تحكم من غير ان تعدّ يدٌ المساعد الى رعيتها، وتأمر من غير ان تتولى القيادة ، فكيف يستطيع الحكام ان يقنعوا الفرد في دولة من هذا القبيل ، بان يطيع القوانين ويحصر مساعيهُ في دائرة « الخير الكامل » ؟ فلا عجب اذاً ان يشح السيبادز بوجهه عن دولة لا تطمئن الى الرجال اصحاب المواهب ويحترم العدد اكثر من احترامها المعرفة . ولا عجب ان تجد فوضى حيث لا تجد فكراً ، حيث يحكم الجمهور في تعجل وجهل ثمّ لا يلبث ان يندم حين لا ينفع الندم . اليست الخرافة القائلة بان الكثرة تولد الحكمة خرافة فاسدة ؟ وعلى الضد من ذلك الا ترى ان الرجال حين يجتمعون جماهير يصبحون اكثر جنوناً واشد فساداً واعظم عنفاً منهم وهم افراد؟ اليس من السخف ان يحكم الناسَ خطباء يستثيرون شعورهم بخطب طنّانة كالاوعية النحاسية الجوفاء اذا ضربت عليها طنّت وظلت تطنّ حتى تمسّها يدٌ ؟ حقّا ان ادارة الدولة مسألة لا يستطيع الرجال ان يلفوا في استعدادهم لها حدود المعرفة والحكمة . انها مسألة تتطلب التفكير الحرّ في اقوى العقول . فكيف نستطيع ان نخلص مجتمعاً ما او ان نحكمهُ الاّ اذا كان حكامُهُ زعماءهُ

موقف السقراطيين

تصوّر الشعور الذي سرى في صدور الحزب الشعبي حين اطلعوا على مبادئ هذه الدعوة الارستقراطية ، في زمن كانت الحرب تستدعي كمّ افواهُ الناقدين والمعترضين ، وكانت الاقلية المتطلعة السريّة تعدّ العدات للقيام بثورة على النظام السائد. تصوّر ما شعر به انيتس احد زعماء السقراطيين حين رأى ابنهُ وقد صار تلميذاً لسقراط ، منقلباً على الآلهة وعلى ابيه ضاحكاً في وجهه

وجاءت الثورة تخاضها رجال الفريقين طالين انها معركة الحياة والموت . فلما فازت الديمقراطية تقرّر مصير سقراط . لقد كان الزعيم الفكري لحزب الثورة مهما يكن مسالماً في اعماله وتصرفه . لقد كان منبع هذه الفلسفة الارستقراطية الممقوتة . هو افسد الشبان السكارى بسحر الجدال والمناقشة . فالافضل ان يموت . هكذا قال انيتس وميليتس

وباقي القصة اشهر من ان يعاد لان افلاطون كتبهُ في «ابولوجيته» نثراً يفوق الشعر رواء وبلاغة . ففيها يصف موت اول شهداء الفلسفة، الذي اعلن حق الانسان في حرية الفكر مؤيداً فائدتهُ للدولة، رافضاً ان يطلب الرحمة من الجمهور الذي كان يحتقرهُ ، مع ان ذلك الجمهور كان يملك العفو عنهُ واطلاق سراحه . انهُ رأى في موته ، وفي حكم القضاة عليه بالموت ، حين كان الجمهور الصاخب يطلب ذلك ، تأييداً لتعاليمه . فتقدم الى الموت بقلب ثابت وقدم راسخة. ويلٌ لمن يحاول ان يعلم الناس أسرع مما يستطيعون ان يتعلموا !

افلاطون

كان اجتماع افلاطون بسقراط مرحلة انقلاب في حياته . ذلك ان افلاطون كان قد نشأ في مهد الرفاهة والرخاء — والبيض يقولون في مهد الثروة ايضاً . كان شابًّا بهيَّ الطلعة مفتول العضل دعي افلاطون لمرض منكيه . وكان قد برع واشتهر جنديًّا وكان قد فاز مرتين في الالعاب الكورنثية . فلا ينتظر ان ينشأ الفلاسفة من طائفة من هذا القبيل . ولكن روح افلاطون الدقيقة الاحساس كانت قد وجدت جذلاً لايحدُّ في طريقة سقراط الجدلية . ما كان اشدّ سرورهُ وهو يصغي الى « المعلم » يمزق المعتقدات التحكمية بمسائله الجارحة . فدخل افلاطون حومة هذه الرياضة كما خاض قبلاً ميدان الالعاب الرياضية . وبنايةسقراط اخذ ينتقل من الجدل والمناقشة الى التحليل الدقيق والمباحث المجدية . فصار مشغوفاً بالحكمة وبمعلمه . قال : اشكر الله اني ولدت يونانيًّا لا بربريًّا . حرًّا لا عبداً . رجلاً لا امرأة . ولكن علاوة على كل ذلك اشكرهُ لاني ولدتُ في عهد سقراط » !

استعداد افلاطون

كان في الثامنة والعشرين لمَّا مات معلمهُ . وموتهُ المفجع ترك في نفسه اثراً لايمحى . وملأ نفسهُ باحتقار الديمقراطية ، ومقت الرجاع على منوال ما ينتظر منهُ وهو ابن اسرة ارستقراطية . وقادهُ تأملهُ الى وجوب القضاء على الديمقراطية واحلال حكم الاحكم والافضل محلها — هذا هو ركن الجمهورية . واضحى اكبر همه في الحياة ان يبتدع طريقة يستطيع ان يكشف بها عن احكم الناس وأفضلهم ثم يقنعهم ان يتقلدوا زمام الحكم

على ان محاولتهُ ان يخلص سقراط جعلتهُ موضعاً لريب الديمقراطيين . فأشار عليه اصحابهُ بان اثينا ليست دارامان لهُ ، وان العناية الالهية قد تكون هيأت لهُ هذه الفرصة ليرى العالم فليغتنمها . وهكذا كان . فانهُ اعدَّ عدتهُ للرحيل وغادر اثيناسنة ٣٩٩ ق.م. اين ذهب ؟ لا نعلم . فالثقات مختلفون كما تقدم معنا . ولكن يظهر انهُ ذهب اولاً الى مصر فصدمهُ ما سمعهُ فيها من الكهان ان اليونان دولة لاتزال في المهد ، لاتقاليد تنزل فيها من مركز الثقل وانها خالية من الثقافة . ولكن الصدمة تفتح العيون فجعل يتأمل . ثم ذهب من مصر الى صقلية فايطاليا وهناك اتصل بمدرسة التي انشأها فيثاغورس . فتأثر عقلهُ الحساس بصورة طائفة من الرجال لاشأن لهم الا الاكباب على البحث والحكم ، ورغم تقلدهم مناصب الحكم كانوا يعيشون عيشة الساذجة الطبيعية . فكانت هذه الصورة المثال الذي بني عليه نظام طبقة الحكام في جمهوريته

وهكذا قضى اثنتي عشرة سنة يتلقى الحكمة من كل مصادرها ، جالساً في كل هيكل ، متذوقاً كل مشرب . فبعضهم يقول انهُ ذهب الى اليهودية فاقتبس هناك تقاليد الانبياء الذين كادوا يكونون اشتراكيين في نزعتهم . وبعضهم يقول انهُ وصل الى ضفاف الكنج وتعلم اساليب التأمل الصوفي من الهنود . كلُّ هذا لا نعلمهُ على حقيقته

عاد الى اثينا سنة ٣٧٨ ق. م. رجلاً في الاربعين وقد انضجتهُ الايام والاسفار وهذَّبهُ تعدُّد الشعوب التي لقيها والمذاهب التي اتصل بها . كان قد فقد شيئاً من الحماسة التي اتصف بها في شبابه . ولكنهُ اكتسب مكانها قدرة على النظر الى الامور من كل وجهاتها نظراً متزناً وهو اساس الحكمة . فقد كان من جهة واسع المعرفة ومن جهة اخرى ذا نفس لا يملكها الاَّ رجل الفن العظيم . في نفس هذا الرجل الفذّ اجتمع الفيلسوف والشاعر في حيّز واحد . فابتدع لنفسهِ اسلوباً جديداً من اساليب الكلام — تتجلى فيهِ الحكمة والجمال — نعني بهِ اسلوب الحوار . ان الفلسفة لم ترتدِ ثوباً يفوق الثوب بهجة ورونقاً — لا قبل افلاطون ولا بعده . قال شلي ان افلاطون يعرض لك ذلك الائتلاف النادر بين المنطق الدقيق والحماسة الشعرية ذائبين في فيضٍ واحدٍ من الاتزان الى سيل عرم من التأثرات الموسيقية

الصعوبة في فهمه

هنا كل الصعوبة في فهم افلاطون . انهُ يمزج الشعر بالفلسفة والعلم بالفن مزجاً يبكر . وانك اذا تأملت محاوراته لم تعرف بلسان اي المتحاورين يتكلم افلاطون ، وهل هو يتكلم استعارة او يعني ما يقولهُ بحرفهِ . وهل هو يجدُّ او هو يهذر . ان محبتهُ للتهكم والهزل وللخرافة تحيّر اللب . حتى لنستطيع ان نقول انهُ لم يتكلم الا بالامثال

ويقال انهُ كتب هذه المحاورات لقراء عصرهِ . فان الاخذ والردّ فيها واعادة بعض البراهين لتحكيمها في نفوس المستمعين كان يقصد بها كلها جمهور القراء والمستمعين في ذلك العصر ، لذلك ترى ان كثيراً منها لا نستطيع ان ندركهُ لبعد الشأو بين حياتنا وحياتهم وأساليب معيشتنا وتفكيرنا وأساليب معيشتهم وتفكيرهم . فلا يحزنَّ القارىء اذا لقي في الجمهورية كثيراً مما لا يستطيع الى ادراكهِ سبيلاً لما كسي بهِ من الاستعارات التي لا تدركها عقولنا في هذا العصر

وليذكر كذلك ان في افلاطون صفات كثيرة كالصفات التي كان يحمل عليها في محاوراته . انهُ يحمل على الشعراء وخرافاتهم ثم يضيف اسمهُ الى مئات من اسمائهم وخرافاته الى الوف من خرافاتهم . انهُ يتذمر من الكهان ولكنهُ هو كاهن ولاهوتي وواعظ . يحمل على

الفن حملات صادقة ويرمي بكل الاساطير الى النار ولكنهُ يعمد الى بعض الاساطير لتأييد اقواله بل يعمد الى بعضها فيجعله اساساً لنظام التعليم في دولته . انهُ يعترف على سوال شكسبير ان المتشابهات تحمل على الزلق ولكنهُ لايخرج من مشابهة حتى يدخل في اخرى. انهُ يحتقر السفسطائيين لتلاعبهم بالكلام في سبيل اثبات ما يريدون اثباتهُ. ولكنهُ لايترفع عن ان يفعل فعلهم كالمبتدىء بعلم المنطق . ان اميل فاجيه الفرنسي يقدمهُ ليسخر منهُ فيقول على منواله : «الكلّ اكبر من الجزء — لا بدَّ — والجزء اقل من الكل — لهم — لذلك يتضح ان الفلاسفة يجب ان يحكموا الدولة — ماذا تقول ؟ انهُ امر واضح — فلنعد الكرة عليه »

مقام الجمهورية

على ان هذه النقائص هي اكبر ما يرمى بهِ . وبعد ما نقول كل ما يمكن ان يقال فيهِ من هذا القبيل تبقى محاوراتهُ كنزاً من اثمن كنوز العالم . وأهمها الجمهورية وهي رسالة كاملة بذاتها فيها تجد فلسفتهُ فيما وراء الطبيعة — لاهوتهُ — نظامهُ الادبي — فلسفتهُ النفسية — فلسفتهُ التعليمية — فلسفتهُ السياسية — ومذهبهُ في الفن. فيها امر على المسائل التي نحسبها الآن من مبتكرات عصرنا — الشيوعية — الاشتراكية — تحرير النساء — تحديد النسل — اليوجنية — والمسائل التي اثارها نيتشه فيما يتعلق بالآداب . الارستقراطية والعود الى الطبيعة ، على ما قال بهِ روسو، والتعليم الحر — الدافع الحيوي الذي ذهب اليهِ برغسن — والتحليل النفسي الذي ابتدعهُ فرويد — كل شيء نجده في الجمهورية — انها مأدبة المختارين يقدمها مضيف كريم

افلاطون هو الفلسفة والفلسفة هي افلاطون — هكذا قال امرسن : ثم قال : احرقوا المكاتب فكلها في هذا الكتاب

تحليل الجمهورية

١ — تقسيمها

الجمهورية عشرة كتب تقسم بطبيعتها الى خمسة اقسام (١) القسم الاول يشتمل على الكتاب الاول وهو مقدمة للبحث فيهِ يثير سقراط المسألة الآتية : ما هي العدالة ؟ (٢) والقسم الثاني يشتمل على الكتاب الثاني والثالث والرابع وهي تحتوي على اركان الدولة المثلى وخصوصاً تعليم طبقة الحكام فيقوده ذلك الى تحديد المقصود بالعدالة في الدولة اولاً ثم في الفرد (٣) والقسم الثالث يشتمل على الكتاب الخامس والسادس والسابع وهي في

رأي بعض النقاد والقفاة استطراد وتوسع في موضوع الكتاب الاساسي . وهذا القسم يشتمل على بحث في السيوعية خاصة بطبقة الحكام وعلى وجوب تقليد زمام الاحكام للفلاسفة وعلى نظام لتعليم الملوك الفلاسفة تعليماً عالياً . وتعليم الفلاسفة يستغرق كتابين السادس والسابع وهما في عرف المؤرخين استطراد من الكتاب الرابع (٤) القسم الرابع يشتمل على الكتابين الثامن والتاسع وفيهما يقف البحث على انحطاط الحكومة المثلى (والفرد الامثل) والصور التي تتخذها في انحطاطها هذا فيرى انها تتخذ اربعة اشكال تنتهي بالاستبداد وهو صورة التعدي التام تقابله العدالة الكاملة في الدولة المثلى (٥) والقسم الخامس يشتمل على الكتاب العاشر فتعرض امام المقررات التي سبق وأدى اليها البحث في الفصول السابقة ويختم بحث في خلود النفس وجزاء الفضيلة ووصف ليوم الديونة

٢ ـ غرضها وفكرتها العامة

نشأت الجمهورية عن مناقشة في حقيقة العدالة فذكر بعض المتناقشين حدوداً للعدالة لم يلقَ سقراط صعوبة ما في تفنيدها . ولكن اتين من اتباع سقراط ذهبا الى ان الانسان لا يميل بفطرته الى العدالة اكثر من ميله الى التعدي وانهُ لا يطلب العدالة لذاتها ولكنهُ يطلبها لانهُ يدرك النتائج التي تحل بالمجتمع اذا اطلق كلٌّ عنانهُ في اعمال التعدي . فكأنهما شبَّها المجتمع البشري — كما شبههُ شوبنهور — بجماعة من القنافذ اقتربت بعضها من بعض طلباً للدفء فكان لابدَّ ان تخز اشواك القنفذ الواحد جسم جاره . ولكن اذا جعلتَ لكل شوكة غمداً من اللباد امكنها أن تقترب بعضها من بعض من غير ان يخز احدها الآخر . فمعد اللباد هذا هو بمثابة القوانين التي نظن ان العدالة مستقرة فيها وانما هي استنبطت لتتم الاحتكاك الذي يحدثهُ اجتماع الناس وانطلاقهم في اكفاء رغباتهم وشهواتهم من غير ما رادع او وازع

الادلة التي يدليان بها قوية وطويلة. تنتهي الى السؤال التالي: هل تستطيع يا سقراط ان تبين لنا ان العدالة بطبيعتها أسمى من التعدي . وان الادب اصلح من فساد الادب . اذا كان ذلك في طاقتك فبرهن عليه يا سقراط اذا اردت . هكذا قال غلوكون وأديمنتس

هذا هو الفصل الاول. اما باقي الجمهورية فهو ردُّ سقراط على هذا التحدي الموجَّه اليه. ولكي يحدِّد معنى العدالة ويثبت انها افضل من التعدي قال ان اقوم الطرق للوقوف على حقيقتها هو البحث عنها حيث تبدو مظاهرها كبيرة واضحة للعيان — اي في المبادىء التي تجري بموجبها المجتمعات البشرية — اي في الدولة . ولابدَّ انها تكون على اوضح ما تكون في الدولة المثلى

فما هي الدولة المثلى ؟ هي الدولة التي تنتظم أمورها باعتبار ما هو «خير» اعتباراً معقولاً . هكذا يقول سقراط

والدولة المثلى في نظره يجب ان تكون ارستقراطية تحكمها طبقة من الحكام يتعلمون تعليماً عالياً وافياً ثم يختارون لمنصبهم بفضل مقدرتهم على ادراك المبادىء التي تقوم عليها الدولة وجدارتهم في تطبيقها وحفظها . وهؤلاء يعيشون عيشة شيوعية لكي لا تغريهم المطامع بالحياد عن الصراط المستقيم . ويلي طبقة الحكام طبقة الجيش للدفاع عن الدولة، وطبقة العمال والصناع لاستغلال مواردها . فدولة افلاطون قائمة على مبدإ الاختصاص . وهذا معارض كل المعارضة للديمقراطية — بمعناها الاصطلاحي — حيث يحسب كلُّ انسان بارعاً في كل عمل وحيث يدعي رجل الشارع انهُ يستطيع ان يدرك ادارة الشؤون على اختلافها ويصدر فيها حكماً يجب احترامهُ

ويقابل تقسيم الدولة الى طبقات ثلاث تقسيم نفس الانسان الى مناطق ثلاث . فنفس الانسان لها ثلاثة اقسام بحسب رأي افلاطون في جمهوريته: القسم العقلي — والقسم الحامي او الغضبي — والقسم الشهوي . فالحكمة فضيلة الاول . والشجاعة فضيلة الثاني والاعتدال فضيلة الثالث . ويقابل كل قسم من اقسام النفس صنف خاص من الرجال . فحاكم الدولة وهو رجل فيلسوف يمثل الرجل العاقل ويقابل في نفس الانسان القسم العقلي . والجندي يمثل الرجل الحامي وهو يقابل القسم الحامي في نفس الانسان . والصانع يمثل الرجل الشهوي الذي تتنازعهُ الرغبات المختلفة وهو يقابل القسم الشهوي في نفس الانسان

وكما ان العدالة في الدولة تقوم بقيام كل فرد بالعمل الخاص بطبيعته — فالحاكم يحكم والجندي يحمي الديار والعامل يستغل موارد الارض — هكذا العدالة في النفس تقوم بقيام كل قسم منها بعمله الخاص به — فالعقل يضبط الشهوات حاكماً في المدى الذي يطلقهُ للرغبات . و « العواطف » تساعد العقل في عمله بتجنيد « العواطف الشريفة » لتأييده كالغضب من الخطة والخجل من الكذب . فالعدالة الاجتماعية هي مظهر خارجي لهذه العدالة الداخلية عدالة النفس . ولما سئل كيف يستطيع ان يحقق هذا الحلم الجميل اجاب «ملّكوا الفلاسفة» والفيلسوف في رأيه هو الرجل الذي يعرف الحقيقة . والحقيقة في نظره هي « صورة الخير » التي منها تستمد الاشياء الصالحة صلاحها

٣ ـ المشكلات التي تثيرها

المسائل التي يثيرها افلاطون في الجمهورية على لسان سقراط هي هي المسائل التي ما زال ابناء العصر يثيرونها في كل مجتمع وكل ناد . والحلول التي يقترحها لهذه المسائل لم تفقد

جدتها على قدم المهد بها . لانها متسمة بسمة ذلك العقل الجبار ومطبوعة بطابع تلك النفس التي تحررت من قيود الزمان والمكان كما قال ابرسن فضمنت الخلود . فما هي هذه المسائل؟

﴿ اولاً : المسألة الادبية ﴾ الحديث يجري في بيت سيفالس الارستقراطي الثري. بين المجتمعين ترى غلوكون وادمنتس اخوي افلاطون وثراسياخس وهو سفسطائي متعنت يثور لاقل بارقة

« ماذا تحسب يا سيفالس اعظم بركة جنيتها من ثروتك » هذا هو سؤال سقراط — بل هو سؤال افلاطون على لسان سقراط

فيجيبهُ سيفالس انهُ يحسب الثروة بركة عليه لانها تمكنهُ من ان يكون كريماً وامينا وعادلاً . فيسألهُ سقراط على طريقته في توجيه الاسئلة ، ماذا تريد «بالعدالة» . حدّدها . تثور حرب الجدال وتنطلق شياطينها . لان اصعب ما في العلم والفلسفة هو وضع تحديد . ولا شيء اشق على الذهن من التفكير تفكيراً صافياً خالصاً من الشوائب . على ان سقراط لم يلقَ صعوبة ما في تقييد الحدود المقترحة حتى يدخل المعمعة ثراسياخس وكأنهُ جنديها الكمي فيتكلم كما يزأر الاسد قائلاً :—

« اي كلام فارغ يشغلكما يا سقراط وبوليمارخس . ولماذا تخدعان الناس بتأتكما المتبادل . فاذا كنت حقيقة تريد تحديد العدالة فلا تقتصر على توجيه الاسئلة ، وتتصل باقساد الاجوبة الواردة عليها . لانك عالم ان توجيه الاسئلة اسهل من اجابتها فاجب انت وقل ما تدعوهُ عدالة (٣٣٦)

على ان هذا الزئير لا يخيف سقراط . فيمضي في طريقه في تؤدة ولطف يوجّه الاسئلة اكثر مما يجيب عنها . وبعد جدال قصير يحمل ثراسياخس على اقتراح حدّ للعدالة. فيقول: «فاسمع اذاً، تعليمي هو ان العدالة انما هي «فائدة الاقوى» . . . . فمعناي يا سيدي انهُ في كل بلد منفعة الحكومة هي العدالة . . . . فنتيجة البحث الحق هي ان منفعة الاقوى هي العدالة في كل مكان . . . . فيؤوب العادل صفر اليدين ويطمع الظالم بالكل . . . . ولانهُ عادل تمنعهُ عدالتهُ من ان يمدَّ يدهُ الى اموال الدولة . ثم انهُ يصير مكروهاً من خدمه وصحبه كما اني ان يؤثر مصالحهم على العدالة . . . وحين ينبذ الناس المنكرات فلا يكرهونها لذاتها بل مخافة تبعتها ٣٣٨— ٣٤٤

ان هذا المذهب مرتبط في عصرنا باسم نيتشه حيث يقول في مكان من كتابه «هكذا تكلم زرادشترا» : حقًّا اني ضحكت مراراً على الضعفاء الذين يحسبون انفسهم صالحين لان

ليس لهم برأس . وبئس مكيافلي حيث يقول: الفضيلة هي الذكاء مع القوة. واذا افرغنا المسألة في قالب عصري قلنا « ان قبضة قوة اعظم من قطار حق » . وقد اشار افلاطون الى هذا الموضوع في مكان آخر من محاوراته (جورجياس) فجعل بلسان الصوفي كاليكيس قائلاً : « انهُ ادب استنبطهُ الضعفاء ليدلّوا به قوة الاقوياء »

فهل لطلب القوة او لطلب الحق ؟ وهل خير لنا ان نكون صالحين او ان نكون اقوياء؟ كيف يجيب سقراط — او بالحري افلاطون — انهُ في البدء لايجيب . بل يمضي في توجيه الاسئلة يبين بها ان العدالة انما هي علاقة بين الافراد لذا يجب ان ندرسها حيث نرى مظاهرها واضحة مكتوبة بالخط العريض — اي انهُ يقترح ان يدرسها في المجتمع . فتحليلها حينئذٍ يكون اقرب منالاً . ولكن يجب ان لا نخطىء فافلاطون يجمع في الجمهورية بين كتابين — لانهُ ينتقل من مسألة ادب النفس، كما هي مرتبطة بحياة الفرد، اليها مرتبطة بحياة المجتمع . وهذا الاستطراد وهبنا « الجمهورية » على انها صورة العدالة المثلى

﴿ ثانياً : المسألة السياسية ﴾ تكون العدالة مستطاعة اذا عاش الناس على فطرتهم . ولو ان فوضويًّا اراد ان يفسّر كلام افلاطون لقال انهُ يقصد بذلك الشيوعية . ولكن لافلاطون شيوعية خاصة سيأتي ذكرها . اصغ اليه يصف هذه المعيشة الفطرية وصف شاعر

« انهم يجنون ذرة وخمراً ويصنعون ثياباً واحذية ويشيدون لانفسهم بيوتاً ويمكنهم العمل صيفاً اكثر الوقت بدون احذية ولا اردية . اما في الشتاء فيجهزون بما يلزمهم منها. ويقتاتون بالقمح والشعير ويصنعون خبزاً وكعكاً وينشرون الخبز الجيد والكعك اللذيذ على حصر محوكة من القش او على اوراق الاشجار النظيفة . ويجلسون على اسرة مصنوعة من اغصان السرو والآس . ويتمتعون بصفاء العيش مع اولادهم، راشفين الخمور، مكللين بالغار، مسبحين الآلهة — معاشرين بعضهم بعضاً بسلام . ولا يلدون اكثر مما يستطيعون ان يمولوا خوفاً من الفاقة والحرب (٣٧٢)

لاحظ ايها القارئ الكريم اشارتهُ الى تحديد النسل والى مذهب الاكتفاء بأكل الخضراوات والى الرجوع الى الطبيعة . ولكنهُ لا يقبل ان تقودهُ تصوراتهُ الشعرية الى الحيدة عن نهج التدقيق الذي انتهجهُ فيسأل نفسهُ « ولماذا يستحيل علينا تحقيق هذا الفردوس على الارض ؟ » ثم يجيب: هو الطمع من جهة والترف من جهة اخرى! فالناس لا يكتفون ان يعيشوا المعيشة الفطرية الساذجة. فهم لا يلبثون حتى يتشوفوا الى غيرها فيطلبوا ما ليس في حيازتهم. ويندر ان يطلبوا شيئاً الاّ اذا كان في حيازة آخرين . فينتج عن ذلك التعدي على ارض

الجار وتمتلكاته والزحام بين الافراد والجماعات على الارض وتناجها فيفضي ذلك الى الحرب

وتنشأ التجارة وترتقي فتفضي الى تقسيم جديد بين الناس . « فكل مدينة » قال افلاطون «هي في الواقع مدينتان — مدينة الاغنياء ومدينة الفقراء وكل منهما في حرب مع الاخرى وفي كلّ من هذه الطبقات طبقات اخرى صغيرة — انك لتخطئ خطأ كبيراً اذا نظرت اليها على انها دولة واحدة » : (٤٢٣) وتنشأ طبقة التجار العامة التي يحاول افرادها الوصول الى المراتب الاجتماعية السامية عن طريق المال — « وينفقون مبالغ طائلة من المال على نسائهم » (٥٤٨). وهذا التغير في توزيع الثروة يصحبهُ او يعقبهُ انقلاب في الاحوال السياسية . فاذا امتدت اصابع التاجر التي الى الارض أخذت الارستقراطية تندحر امام الاوليغاركية فيحكم الدولة التجار واصحاب البنوك فتهبط السياسة — وهي تعاون القوى الاجتماعية وتطبيق الخطط لنمو البلدان — الى درك اسفل وتحلُّ محلها الالاعيب السياسية وفي مقدمتها فائدة الحزب وشهوة المناصب . وهكذا يميل كل شكل من اشكال الحكومة الى الانحطاط والاندثار اذا تمادى في المبدإ الاساسي الذي يقوم عليه . فالارستقراطية تتلاشى اذا حدّدت الدائرة والطبقة الارستقراطية التي يحق لها ان تولى الاحكام تحديداً ضيقاً والاوليغاركية تميل الى الهدم متى قوي الميل الى جمع المال جمعاً عاجلاً من غير اي اعتبار آخر . وفي كلا الحالين يفضي التصدع الى الثورة . ومتى جاءت الثورة ظهر ان الباعث عليها سبب طفيف او شهوة زائلة . ولكنها في الواقع تكون نتيجة لعوامل خطيرة تعمل مدى دهر طويل كالجسم اذا اضعفتهُ العلل انزل به اقلُّ تعرض للمرض افتكَ الادواء (٥٥٦)

ثم تجيء الدمقراطية فيفوز الفقراء على خصومهم يذبحون بعضهم وينفون البعض الآخر ويمنحون الناس اقساطاً متساوية من الحرية والسلطان (٢٥٧)

ولكن الدمقراطية قد تتصدع وتندثر بكثرة دمقراطيتها . فان مبدأها الاساسي تساوي كل الناس في حق المنصب وتعيين الخطة السياسية السامية . هذه لحة خلابة من نظام يستهوي العقول والنفوس ولكن الواقع ان الناس ليسوا اكفاء معرفة وتهذيباً ليتساووا في اختيار الحكام وتعيين افضل الخطط . وهذا منشأ الخطر (٥٥٨) ان حكم الرعاع بحر مضطربٌ اذا امتطتهُ سفينة السياسة تقاذفتها كل ريح تهبُّ فينشأ من الدمقراطية الاستبداد . لان الجمهور يحبُّ المديح والاطراء فاذا جاءهُ زعيم بطرتهُ ليحقق مقاصده الخاصة داعياً نفسه حامي حمى الشعب ولاّهُ الشعب السلطة العليا فيستبدّ به (٥٦٥)

وكلما فكّر افلاطون في الامر تراءُ وتدتولاه العجب من هذا الجنون الذي يسمى دمقراطية — اي ان تعهد الى شهوات الجمهور واهوائه في اختيار الموظفين السياسيين . وحجتهُ في ذلك :

اذا كنا في المسائل الصغيرة كصنع الاحذية مثلاً لا نعهد في صنع احذيتنا الا الى اسكاف ماهر فكيف نحسب كل من يفوز باصوات كثيرة قادراً على ادارة احكام المدينة . فاذا مرضنا — يقول — ندعو طبيباً بارعاً في طبه ولا نبحث عن اجل طبيب او اوضح طبيب . واذا كانت الدولة معتلة يجب ان نبحث عن اصلح الناس وأحكمهم لمناصب الحكم. فغرض الفلسفة السياسية هو استنباط طريقة تمكننا من ذلك

﴿ المسألة السيكولوجية ﴾ ولكن وراء مشاكل السياسة طبيعة الانسان . ولكي نفهم السياسة يجب ان نفهم الفلسفة النفسية . « الرجل كالدولة » ٥٧٥ . و« الحكومات تختلف كما تختلف اخلاق الناس . . . والدول مكونة من الطبائع البشرية » ... ٥٤٤ . فالدولة تكون ما تكون لان ابناءها هم ما هم . فلا طمع في ترقية الدولة الا بترقية افرادها (٤٢٥)

فلنفحص قليلاً هذه المادة البشرية التي تتكون منها الدول. ان تصرف الانسان ينشأ عن ثلاثة مصادر : العقل : الشهوة : العاطفة

انك تجد هذه القوى في كل النفوس ولكن على درجات متفاوتة . ففي بعض الرجال ترى الشهوات مجسمة — لا يستقرون على حال من القلق في طلابه . المال . والرفاهة والظهور والنزاع . فلا يحققون غرضاً حتى تقوم في نفوسهم اغراض. هؤلاء هم الرجال الذين يسيطرون على الصناعة . وفي طائفة اخرى ترى الشعور مجسماً والشجاعة ظاهرة . هؤلاء لا يهتمون بالباعث لهم على خوض غمار حرب وغرضهم منها وانما يهتمون اولاً بالنصر . وعظمتهم تتجلى في ابهة السلطان تساق اليهم لا في الممتلكات واحراز الثروة . واعظم جذلهم في ميدان الحرب لا في سوق المال . من هؤلاء تألف جيوش البر والبحر . ثم هنالك طائفة هي اقلية صغرى تهتم بالتأمل والفهم ، تدع جانباً السوق والميدان ، لتنسى الدنيا وما فيها في ملكوت الفكر . ارادة هؤلاء نور لا نار . وغرضهم الحقيقة لا السلطان . هؤلاء هم رجال الحكمة الذين لا تفسدهم الدنيا

ولما كان عمل الانسان الفرد على أتمه اذا كانت تمليه الشهوة تذكيها العاطفة ويقودها العقل ويكبح جماحها فهو كذلك في الدولة المثلى : رجال الصناعة ينتجون ولا يحكمون . ورجال الحرب يحمون حمى الدولة من غير ان تلقى اليهم مقاليد الحكم . ورجال المعرفة والعلم والفلسفة يُثقّفون ويكسّون ويحمون ليحكموا . لان الناس اذا لم يهدهم العلم كانوا جمهوراً من الرعاع من غير نظام — كالشهوات وقد اطلق لها العنان . فالناس في حاجة الى هدي الفلسفة والحكمة ، كما تحتاج الشهوات الى انارة العقل . ان الدمار يحلّ بالدولة حين يحاول التاجر الذي نشأت نفسهُ في الثروة ان يصبح حاكماً (٤٣٤) او حين يستعمل القائد جيشهُ

لفرض دكتاتورية حربية . المنتج على اصلحه في ميدان الاقتصاد والجندي على اصلحه في ميدان الحرب . وكلاهما يكونان على افسدهما في المنصب العام ، وفي ايديهم غير المثقفة تفرق الاعيبُ السياسة حكمها . لان السياسة علم وفن والرجل السياسي يجب ان يقف نفسهُ عليها ويستعدّ لها والملك الفيلسوف هو الرجل الوحيد الجدير بقيادة امة

وما لم يصبح الفلاسفة ملوكاً ويصبح الملوك والامراء حائزين لروح الفلسفة وقوتها ، وما لم تجتمع الحكمة والزعامة السياسية في رجل واحد ، لا تستطيع الدول ان تشفى من ادوائها . . . ولا الجنس البشري (٤٧٣)

هذا هو ركن الدولة المثلى في جمهورية افلاطون . وهذا هو مفتاح فلسفته

٤ ـ الحلول التي تقترحها

﴿ الحلُّ البيولوجي — نظام التهذيب ﴾ فما هو السبيل الى تحقيق هذا الفرض الاسمى ؟ تشرع بالاستيلاء على كل الاطفال الذين دون العاشرة (٥٤٠) اذ ليس في الطاقة انشاء الفردوس الارضي ما زال الصغار يفسدون كلَّ ساعة باقتفاء آثار كبارهم . يجب ان نفسح امام كل طفل ميدان المساواة في الحصول على التهذيب لاننا لا نستطيع ان نقرّر في اي سنّ يلمع مصباح البقرية في نفوسهم وعقولهم . فعلينا ان نبحث عنهُ في كل طبقة من الطبقات وكل عمر من الاعمار . والخطوة الاولى على طريقنا هي « التعليم العام »

ثم قسّم مراحل التعليم . فجعلهُ عملياً بدنيًّا محضاً في السنوات العشر الاولى وقضى ان يكون في كل مدرسة دار وميدان للالعاب الرياضية على اختلافها (الجمناستك). وهكذا تخزن في اجسامهم صحة تجعل الطبَّ فنًّا يستغنى عنهُ . اننا لا نستطيع ان نكوّن جمهوريتنا من افراد معتلي الابدان . فالفردوس الارضي يجب ان يبدأ في جسم الانسان

ولكنّ التمرين الرياضيَّ يُنمي الانسان في جهة واحدة « فما هي السبيل الى الحصول على طبيعة لطيفة تدعمها شجاعة عظيمة — لانهُ يظهر ان الاثنين لا يجتمعان » ٣٧٥ . لعلَّ الموسيقى تحلُّ هذا المشكل المعقد . فالموسيقى تعلم النفس الايقاع والاتساق وينشأ فيها ميل الى العدل لانهُ « يستطيع من كان ذا نفس متسقة ان يكون متعدياً » . ان الموسيقى تهذب الاخلاق ولذلك نجد لها اثراً كبيراً في تعيين الاحوال الاجتماعية والسياسية . ثم يتناول افلاطون اثر الموسيقى في الصحة على منوال مذهب القائلين « بالشفاء بالاستواء » وينتقل الى تعليل الاحلام على منوال فلسفة فرويد — اي ان مصدرها هو رغبات النفس المكبوتة . ففي كلٍّ منا حتى في الرجال الصالحين تكمن طبيعة الوحش البرّي وتظهر في اثناء النوم (٥٧٢)

فالموسيقى والايقاع يحيوان النفس والجسد صحة واتساقاً . ولكن التمادي في الموسيقى كالتمادي في الالعاب الرياضية يفسد النفس . لان هذا يجعل الرياضي كالوحش وذاك (أي الموسيقي) يُلينهُ ويضعفهُ (٤١٠) فيجب الجمع بين الاثنين ولذلك متى تجاوز الفتى السادسة عشرة يجب ان يقلع عن اغاق وقته في تعلم الموسيقى

وهو لا يقصد بالموسيقى الإنغام فقط بل عرض الموضوعات التي لا يفهمها الفتى في قالب يستهوي كالقالب الشعري مثلا . وحتى هذه « القوالب » يجب ان لا يرغم على حفظها لان افلاطون يرى ما يراه ديوي وغيره من فلاسفة هذا العصر في طرق التعليم . انهُ يقول :

«فيجب تلقين تلاميذنا . . . . مع الاعتناء بتلقينهم العلم بطريقة غير اجبارية . . . لانهُ لا يجوز ان يمزج تهذيب الحرّ بشيء من ملابسات الاستعباد : ان ارغام الجسد على الاعمال الجسدية لا يحدث تأثيراً في الجسد . اما في امر العقل فلا يتأصل علم في الذاكرة اذا اتاها بطريق الارغام . فيجب اعطاء الدروس للاحداث باسلوب الالعاب والتسلية . . . ٥٣٦

هذه العقول الناشئة المتفتحة عن ازهار الفكر تفتحاً حرًّا ، وهذه الاجسام القوية المتسقة في جمالها وقوتها هي اساس الدولة النفسي والفسيولوجي . ولكن يجب ان نضيف الى هذين الاساسين اساساً ادبيًّا لان اعضاء المجتمع يجب ان يعيشوا عيشة وئام . على ان نفس الانسان تتنازعها الشهوات والرغبات . فكيف نقنع اصحابها بان لا يطلقوا العنان لشهواتهم ، بنايت يتقيدها المحافظون على الامن العام ؟ انها طريقة وحشية تثير النزاع وتستدعي نفقات طائلة . فاذا نعمل — يقول افلاطون : يجب ان نمدَّ القوانين الادبية بسلطة من وراء الطبيعة : — اي يجب ان يكون لنا دين

وهو يعتقد كل الاعتقاد ان الامة لا تكون امة قوية الاّ اذا كانت تؤمن بألهٍ — ليكن قوة كونية ، او سياً اوليًّا ، او اندفاعاً حيويًّا ، ولكنهُ اذا لم يكن جسماً في شخص فلا يستطيع ان يثير في صدور الناس رجاء او عطفاً او تضحية . انهُ لا يستطيع ان يعزي القلوب الجريحة ولا ان يشجع النفوس الخائرة . وهكذا نرى افلاطون يسير بأدلته على منوال ادلة بسكال . مع انهُ سبقهُ بنحو الفي سنة

بعد هذا يقدّم احداثنا للامتحان ، في الامور النظرية والسلوكية . ويجعل الامتحان على طريقة تمكن كل ذي موهبة من اظهار موهبته ، وكل ذي ضعف ضعفهُ على وضح النهار . فالذين يسقطون في هذا الامتحان الاول يعين لهم عمل الدولة الصناعي — الكتاب وعمال المصانع والفلاحون . والذين يجتازون هذا الامتحان الاول يقضون عشر سنوات اخرى في التعليم والتمرن . ثم يتقدمون لامتحان آخر اصعب من الاول اضعافاً مضاعفة .

فالذين يسقطون فيه يعينون لمناصب مساعدي الحكام (التنفيذ) وضباط الجيش

وهنا — هنا يتعرض العمل لاعظم المخاطر . اذ كيف نقنع هؤلاء بوجوب قبول مصيرهم والاخلاد الى السكينة . ماذا يمنعهم من ان يجتمعوا مع العمال فيؤلفون دولة مصدر سلطتها الاكبر كثرة العدد ؟ هنا نعد الى الدين فنقنع هؤلاء الشبان ان تقسيم الدولة الى هذه الاقسام منزّل لا يتغير — ونقصّ عليهم خرافة المعادن :

« كلكم اخوان في الوطنية . ولكنّ الاله الذي جبلكم وضع في طينة بعضكم ذهباً يمكنهم من ان يكونوا حكاماً . فهؤلاء هم الاكثر احتراماً . ووضع في جبلة المساعدين فضة . وفي العتيدين ان يكونوا زراعاً وعمالاً وضع نحاساً وحديداً . ولما كنتم متسلسلين بعضكم من بعض فالاولاد يمثلون والديهم . على انهُ قد يلد الذهب فضة . والفضة ذهباً . . . . . فاذا ولد الحاكم ولداً ممزوجاً معدنهُ بنحاس او حديد فلا يشفق والدوهُ عليهِ بل يولونهُ المقام الذي يتفق مع جبلته . فيقصونهُ الى ما هو دونهم من الطبقات . فيكون زارعاً او عاملاً . واذا ولد العمال اولاداً ، ثبت بعد الحك ان فيهم ذهباً او فضة ، وجب رفعهم الى منصة الحكم . . . . (٤١٥)

بقي لدينا عدد ضئيل من الناس اجتاز افراده الامتحان الاول والثاني . هؤلاء تعلمهم الفلسفة . والفلسفة تقوم على عمادين . الاول التفكير الصافي الصحيح — وهو علم ما وراء الطبيعة . والثاني الحكمة في الحكم — وهو السياسة . ولتحقيق الغرضين يجب ان يتعلما مذهب افلاطون في الصور والحقائق وهذا المذهب الذي يفيض عليهِ افلاطون انواراً من شعره وحكمته ، كالية لابن هذا العصر يدخل فيهِ ولا يعرف ان يخرج منهُ . ولا بدّ انهُ كان كوراً يتمحن فيهِ الطامحون الى مناصب الاحكام

وبعد ما يقضون خمس سنوات يدرسون هذه الفلسفة ، يتمرنون كيف يجتازون الحقائق وراء الصور وبعد ما يقضون خمس سنوات اخرى يتعلمون تطبيق هذا المذهب على شؤون الناس ، اي بعد ان يقضوا خمساً وثلاثين سنة يستعدون هذا الاستعداد العظيم فقول ولا شك انهم صاروا جديرين بأن يكونوا الملوك الفلاسفة الذين نطمح بهم

ولكن افلاطون لا يكتفي بذلك . ان تعليمهم في نظره لم يكمل بعدُ . لان تعليمهم كانت تغلب عليهِ حتى الآن الصبغة النظرية . فلينزلوا من قمم الفلسفة الى ظلمات الكهف — الى عالم الناس والاشياء . فان النظريات والمذاهب العامة لا تجدي نفعاً اذا لم تمتحن في عالم « الواقع » فيجب ان يخوضوا معمعة الحياة يتمارسون مع التجار والصناع ، ويصطدمون برجال الحيلة والدهاء — وفي ميدان هذا النزاع يتعلمون من كتاب الحياة المفتوح امامهم. قد يؤذي

الكفاح اصابعهم، وقد تجرح حقائق الحياة بعض مذاهبهم الفلسفية . ولكن لا بدَّ ان يتطوا ان يكسبوا خبزهم بعرق جبينهم . هنا يقضون خمس عشرة سنة ، هي المحكُّ الاخير فيفشل بعضهم ويفوز البعض الآخر . فالفائزون يكونون قد بلغوا الخمسين — وقد هذبهم السنّ والاختبار وخفض من كبريائهم النظرية حوضُ معمعة الحياة فيخرجون وقد تحلّوا بالحكمة الناشئة عن التقاليد والخبرة والتهذيب والتأمل والنزاع في ميدان الحياة — هؤلاء هم غايتنا المنشودة — حكام الدولة المثلى

﴿ الحل السياسي او نظام الجمهورية ﴾ ومن غير ان نعمد الى الخدعة السياسية التي يسمونها « انتخاب » يصبح هؤلاء الرجال حكام الدولة . فكل ابن من ابنائها اتضح امامهُ الميدان ليبلغ القمة العليا . فالذين خاضوا الممحان وخرجوا منهُ سالمين يحقُّ لهم ان يتقلدوا زمام السلطان من غير ان يكون لاخوانهم في طبقات الشعب الاخرى رأي في ذلك

فهل هذه هي الارستقراطية ؟ ولماذا نخاف التلفظ بهذه اللفظة ، اذا كانت الحقيقة التي تم عليها صالحة ومفيدة ؟ انا نريد ان يحكمنا افضل الافاضل . وهذا هو معنى الارستقراطية . على انها في عرف العصر الحاضر وراثية وهذا ما نخافهُ فيها . فليعلم القارئ ان ارستقراطية افلاطون ليست كذلك . حتى ليصح ان ندعوها ارستقراطية دمقراطية. لان الشعب في جمهوريته لا يختار — كما يحدث في بعض البلدان الآن — اهون الشرّين من رجلين مرشحين للرآسة مثلاً — بل يكون كل منهم مرشحاً والزمن هو الذي يختار . فالانتخاب هو انتخاب التهذيب . ومن يجري في نظام افلاطون التهذيبي الى غايته من غير ان يسقط في الطريق يصبح بحكم الطبع حاكماً وفيلسوفاً في آنٍ واحد . انك لست تجد في هذا النظام طبقة تمتاز على طبقة من هذا القبيل فلا المنصب ولا الثروة ولا الامتيازات تعني في هذا الميدان . وصاحب الموهبة لا يطمس موهبتَهُ الفقرُ ولا ضعفُ النفوذ . فابن الحاكم يبدأ حيث يبدأ ابن الجندي وابن التاجر وابن الفلاح وابن الاسكاف . وبحال التقدم مفتوح امام الموهبة التي هي اسمى المواهب كائناً صاحبها من كان . هذه هي ديموقراطية المدارس. ديموقراطية التعليم والتهذيب . وهي الف ضعف افعل وأحكم من دمقراطية صناديق الانتخاب

يصرف هؤلاء الحكام انظارهم عن كل عمل الا عمل الحكم ، ويقفون نفوسهم على محافظة حرية الدولة فتكون هذه صناعتهم ويصدون عن كل صناعة اخرى لا علاقة لها بها . فيكونون الشارعين والمنفذين والقضاة في آنٍ واحد . حتى القوانين المسنونة لا تربطهم بحكم من الاحكام اذا رأوا ان تغيُّر الاحوال يقضي بتغيير القوانين . وركن حكمهم هو « المعرفة المرنة » ، ورغم تقدمهم في السن يفوزون بهذه الصفة لانهم من محبي الفلسفة

وبالفلسفة يعني افلاطون الثقافة العالية — الحكمة تدعمها معرفة مقتضيات الحياة السلمية — ولا يقصد بالفيلسوف من يقتصر على درس ما وراء الطبيعة في عزلة عن سمع الجمهور وبصره ، وما يتنازع حياة هذا الجمهور من بواعث ورغبات وانفعالات

[اشتراكية الملك] ولكن ألا يحمل هؤلاء الحكام تيار القوة والسلطان على التطوع على املاك غيرهم حين تحدثهم النفس بتوفير الثروة وتوسيع الملك ؟ ان افلاطون احترز من الوقوع في هذا الخطل الحياة اشتراكية في طبقة الحكام . واليك ما يقول :

« ١ : ان لا يتملك احدهم عقاراً خاصاً ما دام ذلك في الامكان »

« ٢ : ولا يكون لاحدهم مخزن . . . . . ويجب ان يتقاضوا من الاهلين دفعات قانونية اجرة خدمتهم ، بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون . ولكن لهم موائد مشتركة كما في ثكنات الجنود . وان يخبروا ان الآلهة ذخرت في نفوسهم ذهباً وفضة سماويين فلا حاجة بهم الى الركاز الترابي . . . . ان نقود العامة فيها دخل كثير وهي مجلبة لكثير من الشرور ولكن ذهب الحكام السموي عديم الفساد . فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة ممنوعون من مس الفضة والذهب . فلا يدخلونهما تحت سقفهم ولا يحملونهما ولا يشربون بكؤوس صيغت منهما . وبذلك يصونون انفسهم ودولتهم . ولكنهم اذا امتلكوا اراضي وبيوتاً ومالاً وملكاً خاصًّا صاروا مالكين وزراعاً عوض كونهم حكاماً . فيصبحون سادة مكروهين لا حلفاء محبوبين . . . يُكاد لهم ويكيدون . فيقضون الجانب الاكبر من حياتهم في هذا المراك . . . . »

[شيوعية النساء] ولكن ماذا تفعل نساؤهم ؟ هل يكتفين بالصد عن اسباب الرفاهية والترف ؟ فيجيبك افلاطون «لا يكون للحكام نساء» . فاشتراكيتهم — او شيوعيتهم — يجب ان تتناول النساء ايضاً . لانهُ يجب ان يتحرروا من حب الذات ومن حب الاسرة . ويجب أن لا تنحصر مطالبهم في تحصيل الرزق كما يفعل رب البيت ويجب ان يقفوا حياتهم على المجتمع لا على المرأة . «يجب ان تكون النساء بلا استثناء ازواجاً شاعاً لاولئك الحكام . فلا يخصُّ احدهم نفسهُ باحداهنّ . وكذلك اولادهم يكونون شاعاً فلا يعرف والد ولدهُ ولا ولد والده ...» وحال ولادة الاطفال يتسلمهم موظفون مختصون بهذا الغرض . فيحمل الموظفون اولاد الوالدين الممتازين « الى المراضع العامة .. » وتعنى نساء كل الحكام باولاد كل الحكام من غير فرق . وهكذا ينشأ الاولاد اخوة بالحق . فيكون كل ولد اخاً لكل ولد آخر . وهذه الشيوعية خاصة بطبقة الحكام فقط

[مساواة النساء بالرجال] ولكن من اين نأتي بهؤلاء النساء ؟ لاشك ان بعض

الحكام يخطبن ودّ بعض النساء من طبقات العمال ولكن غيرهنّ يصبحن من طبقة الحكام لانهنّ يجتزن الامتحانات التي تقدم ذكرها مع الرجال، اذاً لا يغرب عن بالنا ان ميدان التعليم في جمهورية افلاطون مفتوح للجميع — لابناء الجنسين ولابناء كل الطبقات على السواء — على مصراعيه وحين يعترض غلوكون قائلاً ان قبول النساء في المناصب العامة (بعد اجتيازهنّ الامتحانات) يناقض مبدأ توزيع الاعمال الذي سبق لافلاطون تبسطهُ يجيبهُ هذا ان تقسيم الاعمال يجب ان يبنى « على الميل الطبيعي والمقدرة الخاصة لا على الجنس ». فاذا ابدت المرأة مقدرة في الادارة السياسية فلتحكم واذا اثبت الرجل انهُ لا يستطيع ان يعمل عملاً افضل من غسل الصحون فليمنع عن كل عمل الا غسل الصحون !

على ان افلاطون احكم من ان يرضى بان تكون المزاوجة عملاً لا رقابة عليه. لانهُ يعرف من درس الحيوانات ان التأصيل لهُ اكبر اثر في انتاج الصفات العالية التي يتوخاها اصحابها. لذلك يقول بتطبيق هذا المبدأ على الناس. وهذا هو مذهب اليوجينية لان التعليم في رأيه لا يكفي بل يجب ان يكون الفتى من اصل اصيل. وان يكون من ارومة متينة العقل والجسم. فالتعليم يجب ان يبدأ قبل الولادة — اي باختيار الزوجين ولذلك لا يسمح لرجل ولامرأة ان يُنعتا الا اذا كانا متمتعين بصحة جيدة. وكل امرأة يجب ان تبرز شهادة قبل زواجها. ما اقل الحكومات التي تحتم ذلك الا ن ! والرجال لا يحق لهم ان يُنعتوا الا اذا كانت اعمارهم تتراوح بين الثلاثين والخامسة والخمسين والنساء متى كنّ بين العشرين والاربعين. والمزاوجة قبل هذين الحدين وبعدهما في الرجال وفي النساء يجب ان تكون من غير عقب. واذا حملت المرأة فيجب ان تجهض او ان لا يرى وليدها النور (٤٦١) كذلك يمنع الزواج بين الاقارب ويجب ان « تكثر من تزويج افضل الرجال بافضل النساء وان نقلّ من تزويج ادنياء الرجال بمثيلاتهم من النساء (٤٦٠)

ويعهد في الذبّ عن حياض الدولة الى طبقة متوسطة بين العمال والحكام هي طبقة الجند. ولكن يجب ان نحترز من الاسباب التي تؤدي الى الحرب واهمها زيادة السكان (تحديد النسل). وثانيها التجارة الخارجية والمنازعات التي تثيرها (كان افلاطون ابن القرن التاسع عشر او ابن القرن العشرين). وهكذا نرى ان بناء الدولة السياسي هرميّ الشكل أعلاهُ طبقة قليلة من الرجال والنساء، هي طبقة الحكام يحميها ويدافع عنها فريق الجند. والقاعدة هي طبقة العمال والصناع والتجار. وافرادها يحق لهم ان يتملكوا املاكاً خاصة وان يكون لهم ازواجٌ وأسرٌ. ولكن الحكام يضبطون سير الصناعة والتجارة حتى يمنعوا التهادي في الثروة والتهادي في الفاقة وقد يمنعون الربا كما ابان افلاطون في غير مكان من محاوراته

﴿ الحلّ الادبي ﴾ اما وقد اتينا على تحليل الاستطراد السياسي فلنرجع الى المسألة الادبية التي بني عليها الكتاب : ما هي العدالة ؟

يرى افلاطون ان العدالة في الدولة هي ان يلزم كل فرد العمل الذي يجيدهُ وان يتناول منها قدر ما يعطيها . فالرجل العادل في الدولة هو الرجل الذي ينزل في منصبهِ المعدّ لهُ ، وفيهِ يبذل وسعهُ ليعطي الدولة قدر ما يأخذ منها . ان دولة كهذه هي بالحق جماعة متسقة اتساقاً موسيقيًّا لان كل عنصر من عناصرها يجب ان يكون في مكانهِ يقوم بعملهِ كما يقوم الموسيقي بعملهِ في الجوق اما اذا خرج الناس كلٌّ من مكانهِ الخاص بهِ ، فاصبح الجندي حاكماً والعامل جنديًّا تصدَّعت اركان الدولة وتفككت عراها وفسد قوامها واضمحلَّت وقضي عليها . فالعدالة هي التعاون الفعّال

والعدالة في الفرد هي التعاون الفعال — على المنوال المتقدم — بين العناصر المختلفة التي تتألف منها طبيعة الانسان — فكل انسان عالم من الرغبات والشهوات والآراء والعواطف . فاذا اتسقت هذه الظاهرات النفسية وتعاونت ظهر صاحبها رجلاً حكيماً عادلا . واذا اختلَّ التوازن بينها وسيطرت العاطفة على سائر القوى أو نزل منها العقل مجرداً منزل الملك المستبدّ تصدَّعت اركان الشخصية وسرى اليها الفساد . فالعدالة هي النظام والجمال في النفس . انها للنفس بمقام الصحة للجسد

وهكذا يردُّ افلاطون ردًّا ابديًّا على ثراسياخس ونيتشه واتباعهما . العدالة ليست القوة مجردة . وانما هي القوة المتسقة . العدالة ليست حق الاقوى ولكنها تعاون كل الاجزاء تعاوناً فعالاً متسقاً على ما فيهِ خير الكل

***

الجمهورية — كما اثبت التاريخ — هي اولى المحاولات التي حاولها عقل بشري ليخلق دولة مثلى ، توضع في عالم الفكر والسياسة ، مع البارثنون في عالم الفن . فالكتاب كلهُ أبلغ مثل على معنى العدالة حسب مذهب افلاطون — انهُ قطعة من الفن متسقة الاجزاء كانها لحن موسيقي خرج من ايدي ارباب — فن مقدمتها الى آخر سطر فيها يتبع الرأيُ الرأيَ ويأخذ الدليل السابق بعنق الدليل اللاحق ، وذلك في دقة واتقان ومنطق وجمال انك لا تستطيع ان تحذف جزءاً منها من غير ان تفقدها جانباً من كامل روعتها . لان افلاطون يكاد يكون الوحيد بين الفلاسفة الذي جمع بين الفلسفة والفن وهذا هو سرُّ عظمتهُ الخالدة المتجددة على كرّ الايام

فؤاد صروف

القاهرة ٧ اغسطس ١٩٢٩